وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم الجغرافية

المحاضرة السابعة

السلطان سليمان القانوني

(١٥٢٠-١٥٦٦م)

اعداد

م.د.أسامة عبد الخالق عايد

للعام الدراسي ٢٠٢٥-٢٠٢٦

خادم الحرمين الشريفين والسُلطان الغازي الأعظم أبو النصر والجهاد سُليمان خان بن سَليم بن بايزيد العُثماني (بالتُركيَّة العُثمانيَّة: غازى سُلطان سُليمان خان اوَّل بن سليم بن بايزيد عُثمانى)، ويُعرف اختصارًا باسم سُليمان الأوَّل، وبلقبه الأشهر سُليمان القانوني (بالتُركيَّة العُثمانيَّة: قانونى سُلطان سُليمان) أو سُليمان العظيم (بالتُركيَّة العُثمانيَّة: مُحتشم سُليمان)، هو عاشر سلاطين آل عُثمان وثامن من تلقَّب بِلقب سُلطانٍ بينهم بعد والده سليم الأوَّل وأجداده من بايزيد الثاني إلى مُرادٍ الأوَّل، ورابع من حمل لقب «قيصر الروم» من الحُكَّام المُسلمين عُمومًا والسلاطين العُثمانيين خُصوصًا بعد والده سليم وجدَّيه بايزيد والفاتح، وثاني خليفة لِلمُسلمين من بني عُثمان، والخامس والسبعين في ترتيب الخُلفاء عُمومًا. عدَّه بعض المُؤرخين قديمًا حادي عشر سلاطين آل عُثمان باعتبار سُليمان چلبي بن بايزيد، الذي نازع أخاه مُحمَّدًا الأوَّل المُلك سُلطانًا، ثُمَّ نُبذت هذه الفكرة على اعتبار أنَّ سُليمان چلبي لم يحكم بصفةٍ قانونيَّة ولم يستقم له مُلك جميع بلاد الدولة آنذاك، وأُجمع على تسمية هذا السُلطان بالأوَّل واعتباره عاشر مُلُوك هذه الدولة.بلغت الدولة العُثمانيَّة في عهد هذا السُلطان أعلى درجات الكمال والازدهار، وتحوَّلت لقُوَّةٍ عالميَّةٍ كبيرة على الصعيدين العسكري والاقتصادي، بحيث لم تعد مُجرَّد فاتحة لأوروپَّا، بل صار وُجودها ضروريًّا لحفظ التوازن السياسي في القارَّة المذكورة. وتقدَّمت الفُتُوحات في زمنه تقدمًا عظيمًا، فاشتملت الدولة العُثمانيَّة على كامل البلقان والأناضول والمشرق العربي والمغربين الأدنى والأوسط وهيمنت على أذربيجان وأقسامًا من القفقاس والمغرب الأقصى لفترةٍ من الزمن، واعترفت بعض الدول الإسلاميَّة في الهند وجنوب شرق آسيا بتبعيَّتها للدولة العُثمانيَّة، وذلك بفضل قُوَّتها البحريَّة التي تطوَّرت تطورًا ملحوظًا في هذا العهد، حتَّى زاحمت الإمبراطوريتين البُرتُغاليَّة والإسپانيَّة على زعامة المُحيط الهندي والبحر المُتوسِّط، وهزمت أساطليهما في عدَّة مواقع.

دام عهد هذا السُلطان ستًّا وأربعين سنة تقريبًا (٩٢٦- ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠- ١٥٦٦م)، فهو أطول السلاطين العُثمانيين حُكمًا، وكان غازيًا مُجاهدًا، فقد شارك بنفسه في ثلاث عشرة حملة عسكريَّة بين أوروپَّا وإيران، وقضى ما مجموعه عشر سنواتٍ وشهرًا واحدًا من فترة حُكمه مُتنقلًا مع جُيُوشه ومُشاركًا في الفُتُوح. رعى العُلُوم والفُنُون، وازدهرت العمارة في أيَّامه ازدهارًا غير معهود، وكان أبرز أعلامها المعمار سنان الدين آغا، وسعى إلى توحيد الأحكام الشرعيَّة في طول البلاد وعرضها للحيلولة دون تعدد آراء القُضاة في المسألة الواحدة، فكان أن لُقِّب نتيجة هذا الجُهد بالـ«قانوني»، وقيل بل لُقِّب به لأسبابٍ أُخرى، ومن أبرز العُلماء الذين برزوا في عهده ورافقوا مسيرته، الإمام أبو السُّعود أفندي. يُعد عهد سُليمان القانوني العصر الذهبيّ للدولة العُثمانيَّة، وذُروة أواخر العصر الذهبي للإسلام. وما أن انقضى هذا العهد حتَّى أُصيبت الدولة بالضعف وأخذت تتراجع قُوَّتها، وليس معنى ذلك أنها سارت نحو نهايتها بخُطىً وثيقة، بل أخذت بعده في الوُقُوف تارة والتقهقر أُخرى.اجتمعت في سُليمان القانوني صفاتٌ حميدةٌ عديدة، فكان رحيمًا رؤوفًا شفوقًا برعيَّته، عاقلًا عادلًا مُتسامحًا هادئ

الطباع غير بطَّاشٍ أو مُتهوِّرٍ كأبيه سليم، واختلف عنه في ناحيةٍ مُهمَّةٍ أُخرى، هي حُبُّه للأناقة والأُبَّهة وفخامة اللبس، ومن أبرز مواهبه التي اشتهر بها صياغة الحُلي ونظم الشعر. كادت سنوات حُكمه أن تكون مثاليَّة لولا قتله ابنه مُصطفى ثُمَّ عصيان ابنه الآخر بايزيد في أواخر عهده، وقيل إنَّ مُحرِّكة هذه الأحداث كانت زوجة السُلطان خُرَّم خاتون الشهيرة باسمها الأصلي «رُكسلانة»، التي رغبت بتولِّي ابنها سليم عرش آل عُثمان بعد أبيه. ولعلَّ من أهم مساوئ هذا العهد بداية الامتيازات الأجنبيَّة في الدولة العثمانيَّة، فهي وإن لم تؤثِّر حينها على هذه الدولة وهي في ذُروة مجدها وقُوَّتها وتتعامل مع الدول الأوروپيَّة ندًا لند، إلَّا أنَّ الأخيرة استغلَّتها لاحقًا لتتدخَّل في الشؤون العُثمانيَّة الداخليَّة.

حياته قبل السلطنة

منظرٌ لمدينة طربزون، مسقط رأس السُلطان سُليمان القانوني، من تلَّة «بوزديَّه». وُلد سُليمان في مدينة طربزون خلال ولاية والده سليم عليها. وتختلف المصادر في تحديد يوم ميلاده بدقَّة، فقيل يوم ٧ صفر ٩٠٠هـ المُوافق ٦ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٤٩٤م، وقيل في ١ شعبان ٩٠٠هـ المُوافق ٢٧ نيسان (أبريل) ١٤٩٥م، وقيل في ١ مُحرَّم ٩٠٠هـ المُوافق ١ تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٤٩٤م. والدته هي عائشة حفصة سُلطان المُتوفاة سنة ١٥٣٤م. قضى سنوات طفولته في طربزون مع أخيه بالرضاعة يحيى أفندي. وعندما بلغ السابعة من عُمره، أُرسل إلى إسلامبول ليتلقَّى عُلُومه في مكتب الأندرون بسراي طوپ قاپي، فدرس الطبيعيَّات والتاريخ والآداب والدين والشُؤون العسكريَّة. وكان أبرز أساتذته الشيخ خير الدين أفندي القسطموني. الشاهزاده سُليمان في شبابه.

شارك سُليمان بحملته العسكريَّة الأولى ما أن بلغ الثانية عشر من عُمره، فقد كان الصفويُّون حينها يتحرَّشون بالعُثمانيين في شرق الأناضول، فسار إليهم الشاهزاده سليم مُصطحبًا معه ابنه سُليمان، وقابلهم قُرب أرزنجان وانتصر عليهم. عُيِّن سُليمان أميرًا على سنجق شبين قرهحصار سنة ١٥٠٨م ليبدأ في التمرُّس على شُؤون الحُكم، ولكن عمَّه الشاهزاده أحمد، أمير سنجق أماسية، اعترض على هذا التعيين لمُلاصقة السنجقين، والتمس من والده السُلطان بايزيد أن يُعيِّن ابن أخيه في مكانٍ آخر، فاستجاب له ونُقل سُليمان إلى سنجق بولي. لكنَّ أحمد اعترض مُجددًا على هذا لقُرب هذا السنجق من دار السلطنة، وسعى إلى إبعاد ابن أخيه مُجددًا ليصفى لهُ المُلك، فأجابهُ بايزيد رعايةً لخاطره وعيَّن سُليمانًا على سنجق كفَّة بالقرم، فسافر إليها واستلم منصبه خلال شهر تمُّوز (يوليو) ١٥٠٩م.عاش سُليمان مُتنقلًا بين إسلامبول وأدرنة بعد تربُّع أبيه على عرش آل عُثمان سنة ١٥١٢م. فناب عنه في إسلامبول لمَّا خرج سليم لمُلاحقة أخيه أحمد في السنة المذكورة. وفي سنة ١٥١٣م عُيِّن سُليمان أميرًا على سنجق مغنيسية، وصادق خلال هذه الفترة مملوكًا روميًا كُلِّف بخدمته، هو إبراهيم البرغلي، فصار خليله ومن أخص خاصَّته، وأوَّل صدرٍ أعظم يُعيَ ُنه خلال سلطنته. وفي سنة ١٥١٦م عُيَّن سُليمان لمُحافظة أدرنة خلال حملة والده على المماليك في الشَّام ومصر،

فبقي في منصبه هذا إلى أن رجع السُلطان من حملته، فاستقبله ثُمَّ عاد إلى مقر ولايته السابقة، أي مغنيسية، وبقي فيها إلى أن بلغه خبر وفاة السُلطان سليم.

تربُّعه على العرش والأحداث المُرافقة

تُوفي السُلطان سليم في ليلة السبت ٩ شوَّال ٩٢٦هـ المُوافق ٢٢ أيلول (سپتمبر) ١٥٢٠م، وأخفى طبيبه الخاص خبر موته عن الحاشية ولم يُبلغه إلَّا للصدر الأعظم پيري مُحمَّد باشا الجمَّالي وللوُزراء، فاجتمعوا وقرَّروا إخفاء هذا الأمر حتَّى يحضر الشاهزاده سُليمان من مغنيسية خوفًا من أن تثور الإنكشاريَّة كما هي عادتهم.

بقي خبر وفاة السُلطان طي الكتمان طيلة تسعة أيَّام، حتَّى وصل الشاهزاده سُليمان إلى إسلامبول ودخلها في يوم ١٦ شوَّال المُوافق فيه ٢٩ أيلول (سپتمبر)، وكان بانتظاره على إفريز السراي جُنُود الإنكشاريَّة، فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المُعتاد توزيعها عليهم عند تولية كُل سُلطان. وبعد ظُهر ذلك اليوم وصل الصدر الأعظم پيري مُحمَّد باشا وأخبر عن وُصُول جُثمان السُلطان سليم في اليوم التالي. وفي صبيحة اليوم التالي، أي ١٧ شوَّال المُوافق ٣٠ أيلول (سپتمبر) جرت رُسُوم المُقابلات السُلطانيَّة، فوفد الأُمراء والوُزراء والأعيان يُعزُّون السُلطان الجديد بوفاة والده ويُهنِّؤونه بتربُّعه على العرش في آنٍ واحد، وهو يُقابلهم بملابس الحداد. وعند الظُهر وصل موكب جنازة السُلطان سليم، فخرج سُليمان لِمُقابلتهم عند أسوار المدينة، واكتنف تابوت أبيه حتَّى مسجد الفاتح حيثُ أقيمت صلاة الجنازة، ثُمَّ خرج الجمع بالسُلطان الراحل حتَّى وُري الثرى على أحد مُرتفعات البلد، وأمر السُلطان سُليمان ببناء جامعٍ شاهقٍ عُرف بِمسجد السليميَّة، ومدرسةٍ في المحل الذي دُفن فيه والده.وكانت باكورة أعماله بعد توزيع بقشيش الجُلُوس على الإنكشاريَّة تعيين أتابكه قاسم باشا مُستشارًا خاصًا، وإبلاغ توليته عرش آل عُثمان إلى كافَّة الوُلاة وأشراف مكَّة والمدينة المُنوَّرة بخطاباتٍ مُفعمة بالنصائح والآيات القُرآنيَّة المُبيِّنة فضل العدل والقِسط في الأحكام ووخامة عاقبة الظُلم، واستهلَّ مُنذ ذلك الوقت جميع خطاباته بآيةٍ شهيرةٍ من سورة النمل:(إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ).دفع المظالمبدأ السُلطان سُليمان عهده بدفع المظالم التي أحدثها والده السُلطان سليم، وكان في مُقدِّمتها إعادة الأعيان الذين اصطحبهم سليم من مصر والشَّام إلى إسلامبول بعد تمام انتصاره وضمِّه لهذين القطرين إلى الدولة العُثمانيَّة، فأمر بإحضارهم وكانوا قُرابة ستمائة بيت، وعاملهم برفقٍ ولين وأذن لهم بالعودة إلى أوطانهم، وسمح لمن يرغب منهم بالمُكوث في إسلامبول أن يفعل ذلك. وكان في مُقدِّمة هؤلاء الخليفة العبَّاسي مُحمَّد المُتوكِّل على الله، فأمر بإحضاره إليه وأكرمه، ورتَّب له في كُلِّ يومٍ ستين درهمًا، ثُمَّ أعاده إلى مصر حيثُ ظلَّ يُمارس صلاحيَّاته بصفته «خليفة» إلى أن أدركه الموت سنة ٩٥٠هـ المُوافقة لسنة ١٥٤٣م. وقد زُيِّنت القاهرة ابتهاجًا،

ثُمَّ أمر السُلطان بعد ذلك برد أموالٍ كان والده قد أمر بمُصادرتها من عددٍ من التُجَّار، وذلك أنَّ السُلطان سليم منع التجارة العُثمانيَّة مع الدولة الصفويَّة كي يُضيِّق الخناق الاقتصادي على الصفويين، فلم يلتزم عدد من التُجَّار بهذا القرار، ولمَّا علم سليم بذلك

صادر أموالهم ومُمتلكاتهم وضمَّ بعضها إلى بيت المال وأنفق بعضها الآخر، فأصدر سُليمان أمرًا باستردادها وإعادتها كاملةً لأصحابها، وكان بعضها قد تلف، فضمنه السُلطان من خزينته بالتمام، ولمَّا وجد أنَّ تُجَّارًا من هؤلاء قد ماتوا، ردَّ أموالهم إلى ورثتهم.

ثُمَّ أمر بشنق أمير سنجق قَلِّيبُلِي جعفر باشا لما أظهره من مظالمٍ وتعديات على حُقُوق الناس، وليكون عبرةً لسائر الأُمراء والولاة، وكذلك أمر بعزل بعض آغوات السلحداريَّة لتعدِّيهم على بُيُوت أعيانٍ من أعيان العاصمة، وقبض على بعض هؤلاء الأشقياء وقتلهم. ومن أبرز المظالم التي دفعها أيضًا إعادة عددٍ من الأولاد النصارى إلى مسقط رأسهم في سنجق «برزرين» ببولونيا، وذلك أنَّ أمير السنجق المذكور كان يُرسل غلمانًا إلى إسلامبول ولأرباب الدولة قائلًا إنهم أسرى حرب، في حين وصل لمسامع السُلطان أنهم أُخذوا من أهلهم غصبًا، وأنَّ هؤلاء الأهالي ليسوا إلَّا رعايا مُسالمين، فما كان منه إلَّا أن أرسل جاووشًا إلى تلك الجهات ليُحقِّق في الأمر، ولمَّا تبيَّن صحَّة الادعاءات أمر بقتل الأمير وكتخداه.اعتبر المُؤرِّخ العُثماني إبراهيم أفندي البجوي أنَّ التوفيق الذي رافق السُلطان سُليمان في حملاته العسكريَّة ومسيرته السياسيَّة كان نتيجة دُعاء المظلومين له في بداية عهده بعد أن أنصفهم. قال البجوي: «وَهكذا فإنَّ الدُعاءَ الذي كان نتيجةً لهذا، وبُكاءَ الفرح الصَّادر من هؤلاء المظلومين لم يَدَع لَدى من أَحاطوا عِلمًا بالأحوَال المذكورة أيَّة ريبة في أنَّ ذلك سيكُون باعثًا لِنيلِ السُلطان صاحب السَّعادة ثمرة العمل الصَّالح الذي قام به في الدَّارين، وباعثًا لطُول عُمره المُبَارَك».

عصيان جانبردي الغزالي

لم تكد تمضي بضعة شُهُور على تولِّي سُليمان العرش حتَّى بلغه عصيان والي دمشق جانبردي الغزالي، وهو من أصحاب السُلطان المملوكي قانصوه الغوري الذين خانوه في واقعة مرج دابق وانحاز إلى العُثمانيين.

وكان الغزالي قد استغلَّ وفاة السُلطان سليم وحداثة سن السُلطان سُليمان وأعلن العصيان على الدولة العُثمانيَّة في شتاء سنة ٩٢٦ - ٩٢٧هـ = ١٥٢٠ - ١٥٢١م. والواقع أنَّه، بعد هزيمة المماليك، احتفظت الديار المصريَّة والشَّاميَّة بقدرٍ كبيرٍ من الحُكم الذاتي الداخلي، فقد وُضع القطران تحت إشرافٍ دائمٍ من جانب القادة العسكريين المماليك الذين انحازوا للسُلطان سليم، فعُيِّن جانبردي الغزالي واليًا على دمشق وخاير بك واليًا على مصر، ومُنحا استقلالًا داخليًّا شبه تام، حيثُ كان كلٌ منهما يملك قُوَّاته العسكريَّة الخاصَّة وجهازه الإداري. نفَّذ الغزالي في بادئ الأمر السياسة العُثمانيَّة المرسومة، فقمع حركة البدو قُرب بعلبك، وشنَّ عليهم حملتين في حوران، وساد البلاد في عهده هُدُوءٌ تام.ويبدو أنَّ طبقة المماليك القديمة التي أحاطت بالغزالي لم تتقبَّل المُثُل العُثمانيَّة العُليا عن العدالة ومَحبَّة الرعيَّة، بل كانوا يكرهون النُظُم العُثمانيَّة، فأخذوا يسعون لاستعادة سُلطانهم وامتيازاتهم السابقة التي حُرموا منها. وعندما توفي السُلطان سليم سارعوا بإعلان تمرُّدهم رافضين أداء اليمين للسُلطان الجديد، وحاولوا إحياء دولة

المماليك. راهن جانبردي الغزالي، الذي اتَّسم بالتقلُّب السريع في سبيل الوُصُول إلى تحقيق طُمُوحه، على الفوضى القائمة في إسلامبول وعلى مُساعدة المماليك في مصر، بل إنَّه حاول التماس الدعم من الشاه إسماعيل الصفوي، فجمع قُرابة اثني عشر ألف مُقاتل، وقيل خمسة عشر ألفًا، من التُركمان والأكراد والمماليك الشراكسة، وفيهم نحو خمسمائة رامٍ بالرصاص، وأعلن انفصال الديار الشَّاميَّة عن السلطنة العُثمانيَّة واتخذ لنفسه لقبًا مملوكيًّا هو «الملك الأشرف»، وأمر بالدُعاء له في خطبة الجُمُعة، ونقش اسمه على النُقُود، وقضى على حامية دمشق العُثمانيَّة، وطرد العُثمانيين من بيروت وطرابُلس الشَّام وحماة وغيرها من المُدُن.لكنَّ التمرُّد لم يحظَ بتأييد السُكَّان الذين أدهشهم الانقلاب، ولم يكن المماليك في مصر على مُستوى ما عُلِّق عليهم من آمال، فقد حافظ خاير بك على ولائه للباب العالي، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فأرسل الرسائل المُتبادلة مع الغزالي إلى السُلطان سُليمان. وفي مطلع شهر ذي القعدة ٩٢٦هـ المُوافق لشهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٥٢٠م، جمع الغزالي عساكره وتلقَّى مُساعدةً من فُرسان الإسبتاريَّة في رودس؛ وشنَّ حملةً على حلب فحاصرها، لكنَّها صمدت في وجهه. وفي تلك الأثناء كان السُلطان قد سيَّر لقتال الغزالي الوزير فرحات باشا وأمير ذي القدريَّة علي بك بن شهسوار، وكان الأخير هو الأسرع إلى حلب، ونجح في تشتيت قُوَّات الغزالي الذي اضُطرَّ إلى التراجع نحو دمشق، فخرج والي حلب قراجة باشا فيمن معه من العسكر، وانضمَّ إلى علي بك، فتتبعوا الغزالي من طريق حماة وحمص إلى دمشق حيث التقاهم فرحات باشا في بقيَّة العسكر. ونشبت بين الطرفين معركة في موضعٍ يُقال له «المصطبة» قُرب دمشق، في ١٧ صفر ٩٢٧هـ المُوافق ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٥٢١م، فانهزم العُصاة، وحاول الغزالي الهرب مُتنكرًا بزيّ الدراويش، غير أنَّه وقع في الأسر وقُتل مع جميع أعيانه يوم ٢٧ صفر المُوافق ٦ شُباط (فبراير)، وأرسل فرحات باشا رؤوسهم إلى العتبة السُلطانيَّة.ألغى السُلطان بعد هذه الحادثة الحُكم الذاتي للديار الشاميَّة، وجعلها تتبع الباب العالي مُباشرةً، وعيَّن بكلربك الأناضول أياس مُحمَّد باشا واليًا على دمشق، وجعل كلًا من بيت المقدس وغزَّة والرملة سنجقًا مُستقلًا لأمير، وكانت قبل ذلك مُفوَّضة للغزالي. وكان الشاه إسماعيل لمَّا راسله جانبردي الغزالي يطلب منه العون قد تجهَّز للهُجُوم على الممالك العُثمانيَّة، لكن ما أن وصله خبر مقتله وفشل ثورته حتَّى فُسخت عزيمته، وتوجَّه إلى قزوين، إلَّا أنَّ السُلطان أمر فرحات باشا بأن يُرابط في نواحي قيصريَّة مع ما عنده من العسكر سوى طائفة القپوقوليَّة، ويحفظ تلك الحُدُود والثُغُور إن شنَّ الصفويُّون هُجومًا عليها.الأوضاع السياسيَّة في أوروپَّا

ما إن استقرَّ السُلطان سُليمان على تخت المُلك حتَّى عادت السياسة العُثمانيَّة تتجه نحو الغرب، لتبدأ مرحلة أُخرى من العلاقات المُتجدِّدة مع أوروپَّا اتَّسمت بالتوسُّع في البلقان والبحر المُتوسِّط. وسبب ذلك أنَّ فُتُوح السُلطانين بايزيد الثاني وسليم الأوَّل قد وفَّرت لسُليمان وضعًا استراتيجيًّا فريدًا شرقًا وغربًا، فقد زالت الدولة المملوكيَّة وأُلزم البنادقة والصفويُّون حُدودهم، في حين لم تكن قد اكتملت بعد قُوَّة إمبراطوريَّة آل هابسبورغ الصاعدة التي كانت في طور الحُلُول محل مملكة المجر باعتبارها العدو الرئيسي في المنطقة المُمتدة شمال نهر الطونة (الدانوب)، كما أنَّ الأُسطُول القوي الذي شُيِّد خلال رُبع القرن السابق قد أتاح لسُليمان سلاحًا جديدًا يُمكِّنه من التصدِّي لأعدائه برًّا وبحرًا،

بالإضافة إلى أنَّ ضم أراضي الخلافة القديمة قد وفَّرت لسُليمان مصادر دخلٍ وفيرة وهيبة كبيرة في العالم الإسلامي بحيث كان باستطاعته أن يصل بدولته إلى قمَّة الازدهار والعظمة.

وكان السُلطان الشاب قد وقف على أوضاع أوروپَّا وسياسات دولها مُنذُ أن كان وليًّا للعهد، وعلم بالمُنافسة المريرة، من أجل تاج الإمبراطورية الرومانيَّة المُقدَّسة بين آل ڤالوا وعلى رأسهم فرنسوا الأوَّل ملك فرنسا، وآل هابسبورغ، وعلى رأسهم شرلكان ملك إسپانيا، والمعروف أنَّ الأخير فاز بعرش الإمبراطوريَّة وجمع، إضافةً لتاج إسپانيا، مُلك صقلية والنبلطان والبُلدان المُنخفضة والنمسا وألمانيا، فاكتسب بذلك سطوةً جبَّارة جعلته يحتل مركز الصدارة في القارَّة الأوروپيَّة، بحيثُ انزعج كُلٌ من البابا لاون العاشر وفرنسوا الأوَّل سالف الذكر وهنري الثامن ملك إنگلترا وحُكَّام البُندُقيَّة. والواقع أنَّ فرنسوا الأوَّل كان وحده القادر على مُنازعة شرلكان على السيادة في أوروپَّا في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروپيَّة الأُخرى مُنهمكة بمُشكلاتها الداخليَّة. فالبابويَّة كانت غارقة في خوفها من العُثمانيين، وتُنافسها البُندُقيَّة، وتُواجه الانشقاقات الكنسيَّة، والپُرتُغاليُّون مُنهمكون بمُغامراتهم البحريَّة لتطويق العالم الإسلامي والبحث عن ثروات الشرق، وهنري الثامن مُنكفئ على مُشكلات الإصلاح الديني التي أثارها في إنگلترا؛ إلَّا أنَّ هذا لم يمنعهم من إظهار ضيقهم بطُمُوح شرلكان لتوحيد أوروپَّا، وأن يجعل من التاج الذي يلبسه تاجًا للعالم المسيحي.

لم يعترف السُلطان سُليمان مُطلقًا بانتخاب شرلكان إمبراطورًا، وهو الذي اتَّصف بأنَّه أشد ما يكون تعصُّبًا ضدَّ المُسلمين، وأشد ما يكون تصلُّبًا، إذ رأى أنَّ دوره الأوَّل يكمن في توحيد الأوروپيين والسير في مُقدِّمتهم لمُحاربة العُثمانيين، لذلك كان بُرُوز خطر اتحادٍ مسيحي ضدَّ العُثمانيين قائمًا بعد انتخاب شرلكان، رُغم فشل البابويَّة مرارًا في إقامة مثل هذا الاتحاد. لكنَّ السُلطان لم يخشَ ذلك بسبب القُدرات القتاليَّة العالية للجُيُوش العُثمانيَّة التي تُخوِّلها التفوُّق على جُيُوش أي دولةٍ أوروپيَّة، إلَّا أنَّ الخطر ظلَّ قائمًا بجميع الأحوال، والروح الصليبيَّة مُتغلغلة، ومهما كانت خلافات المُلُوك والأُمراء النصارى فإنَّهم دائمًا ما يتفقون على حرب العُثمانيين. وقد تبيَّن لشرلكان أنَّ الزحف العُثماني سيتواصل باتجاه الغرب بعد الفاصل الذي دفع السُلطان سليم شرقًا. لذا رأى السُلطان أنَّ واجبه تجاه الإسلام وأهله، وبصفته حاكم أبرز دولةٍ إسلاميَّة في العالم، يدفعه للمُقاومة دون انقطاع لتوسيع رقعة الديار الإسلاميَّة وإبعاد الخطر الصليبي الذي يتهدَّدها على الدوام.

وقرَّر شرلكان أن يعهد إلى أخيه فرديناند، الذي يقتسم معه إرث ومُلك والدهما مكسمليان الأوَّل إمبراطور الرومانيَّة المُقدَّسة، بمُهمَّة الدفاع عن أوروپَّا الوسطى أمام الزحف الإسلامي. وفرديناند هذا هو زوج حنَّة يَغلُونيكة شقيقة لويس الثاني ملك المجر، وقد هدف أن يُصبح فرديناند مُستقبلًا ملكًا على المجر وبوهيميا لأنَّ لويس كان عقيمًا. إضافةً إلى هذا الهدف المُستقبلي، فإنَّ شرلكان وجد نفسه يُواجه ثورة البلديَّات في إسپانيا من جهة، والأحداث التي نتجت عن حركة الإصلاح الپروتستانتي من جهةٍ أُخرى، ما جعله يُحجم عن الاشتراك بنفسه في حرب العُثمانيين. وهكذا فإنَّ هذه

الظُـرُوف دفعـت أوروبّـا بأكلمهـا وقسـمٌ مـن العـالم الإسـلامي إلـى الحـرب، فالبُنْدُقيَّـة وجنـوة اللتــان يعنيهمــا مُباشــرةً أمــر مُمتلكاتهمــا القريبــة والبعيــدة اضــطُرَّتا إلــى المُواربــة بــين الخصــمين. أمَّــا فرنســا فــإنَّ مصــلحتها فرضــت عليهــا أن يكــون لهــا حليــفٌ فــي الشــرق لحمايتهــا مــن الخطــر الإمبراطــوري الهابســبورغي، وكــذلك أُمــراء ألمانيــا البروتســتانت، الـذين وجـدوا أنفسـهم مُتـأرجحين بـين ميـلٍ لاسـتغلال مـا يفرضـه العُثمـانيين مـن تـوازنٍ ضـدَّ الإمبراطوريَّــة الرومانيَّــة المُقدَّســة، وبــين إعراضــهم عــن الانتفــاع مــن مُســاعدة العُثمــانيين بوصــفهم مُسـلمين.والواقـع أنَّــهُ يُمكـن النظـر إلـى القـرن السـادس عشـر المـيلادي علـى أنَّــه مُفتـرق تـاريخي تقـرَّر، انطلاقًـا منـه، شـكل توزيـع القـوى علـى طرفـيّ العـالم الإسـلامي الشـرقي والمسـيحي الأوروپـي فـي الغـرب، ووقعـت فيـه أشـد المعـارك البحريَّـة والبريَّـة هـولًا، وتوقَّفـت علـى نتائجهـا مواقـع الطـرفين المُتحـاربين، أي الدولـة العُثمانيَّـة المُتناميـة، وعلــى رأســها السُــلطان سُــليمان القــانوني، والإمبراطوريَّــة الرومانيَّــة المُقدَّســة، وعلــى رأسـها شـرلكان ثُـمَّ ابنـه فيليـپ، وقـدَّمت كـلٌ منهمـا نفسـها حاميـةً لـدينٍ وحضـارة «فـي مُعادلـةٍ مُتناقضة الأبعاد والتوجُّهات السياسيَّة والحضاريَّة».